قصائـــــد

كاظـــم جهـــاد

صورة أبي في شبابه

كانَ يؤوب إلى الدار مسكوناً بهزيمته. روحه حبلى بحسابات غير مبرمة ووعود منتهَكة. كان دائم الانزلاق على صخرة الواقع العصيّ. لم تكن الشَّكوى من سجاياه، ولا كان من طبعه الاقرار بخسارة. وحده كان يتقلّب على مجْمرة بَلواه. وحده يذبل في قحولة أيّامه. بيدَ أنّ محيّاه كان مشعّاً بضياء لا أحد يعرف مصدرَ ينابيعه. هو وحده كان قابضاً على السرّ: في طفولته، كانت أمّهُ تُناغيه طويلاً، طويلاً. كانت، كما يقول، تُنيمه في أثواب من الغناء. وبصوتها الرخيم كانت تحوك له هذه الدّرع القويّة التي بها سيواصل الاحَتماء في أحلك أيّامه.

الأرض المطلقة

– إلى لورون غاسپار

تولد الأرض المطلقة من شبر في الداخل
بقيَ لِسنينَ ينحتُ بؤرةً مَنً الضوء

تولد الأرض المطلقة من سبَخ بوركَ طويلاً
تولد الأرض المطلقة من الشحّم المتقاطر على الروح
من أعمال لا تفضي إلى نتيجة
تولد الأرّض المطلقة من اللاّشيء
اللاّشيء العظيم الذي عنه يصدر القلب.

إلى رقيب

عبثاً حاولتَ إعاقتي عن الغناء. كنتَ ولا شكّ حاذقاً في المطاردة، ولك في الحصار مواهب كثيرة. فاتكَ، فَحَسبُ، أنّ للغناء نوابض لا يُحسن إيقافها المغنّي نفسه. مبتلى هو بالغناء أكثر منه مختاراً له. متورّط بالنغم، وبالمُحال مسكون. مشدودٌ من هام وعيه إلى عذوبة الكلام، هذه التي بِحَرارتها ينضج على المائدة القربان، وبها ينتعش خيالُ المحزون.

مأثرة

ماشياً على الحبال، يرسم البهلوان في شتات وعيه مأثرةً أثيرة. بينه والحبلَ تنعقد صداقةٌ ختمَ عليها أكثر من امتحان. تتجلّى له الهاوية في صورة حوريّات يكفي أن يصغي لغنائهنّ الطافح بالغواية حتّى ينقلب إلى مَطارح الموت. كثيراً ما تكلّمَ الآخرون عن حذره وهو يتقدّم على شفير المَهاوي. وطالما أطنبوا في الكلام عن خوفه من السقوط. يجهلون أنّ جلّ ما يقوم به هو النضال ضدّ غنائهنّ. عوليس من نمط آخر هو لاعب الحبال. يُبحر في مياه من الهواء، ويصمّ أذنيه عن ترانيم كان يودّ بملء روحه أن يسمعها. وإذْ يتوقّف أحيانًاً، باعثاً فينا ذلك الخوف الطاغي على مصيره، فعن خلل محسوب: لاستعادة أنفاسه أوّلاً، وليتذوّق جملةً من نشيد الحوريّات لاحتُ له مفعمةً بالسّحْر. هكذا، بين نشيد مرفوض وآخر يتلقّفه من على مسافة، يتصرّم عمره الوضئ، أذناً في الغناء، عيْناً علَى الهاويةً، وقدَمين تدبّاَن في مسارٍ مًحفوفٍ بجنونٍ مرغوبٍ فيه ومقصيٍّ دونَ ازدراء.

سيرة

لا أحدَ سيعرف ما به مررتَ
لا النخلة الصافنة في الجوار

ولا الواحة المقفلة منذ عهود سحيقة
لا الجِمال تخفّ بسكْرة الحدَّاة
ولا الطُرق الملغاة منذ أن هجر الفلاّحون
مَطارحَهم إلى المدن
لا إسفلت الشوارع سيَعرف ذاك
ولا مناديل النسوة الملقاة بسخاءٍ على السّقُن
لا تلويحة الوداع ستشهد لك
ولا نشيج الأمّ المتدافع كخراطيم من الماء
عند العتبة
وحدك ستمرّ أعجفَ من خرم الإبرة
وحدك ستصطكّ رعباً في أكثر من مضيق
وحده إنسان عينكَ سيرسم ارتجافتك
وحده اكتمال وعدكَ سيشهد أنّك انتصرت
على الهاوية المتغوّرة أمامك
في شفا كلّ تجربةٍ أو وعد.

بيدَ أنّ هذا كلّه
يرتفع في داخلكَ شمساً عاموديّة
تطرد الظلال وتؤكّد أنّ بيتاً من الشعر
سيكون فيه خلاصكَ وظفرك
من ليلكَ السحيق كلّه.

مائيّــة

كنتُ أسبح ضدّ التيّار. ففكّرتُ بالاحتماء بصخرة. كان عليها نورسٌ عجيب. في نظرته ما يجذبني. كان له عين غمّازة تعلو وتنخفض. كان كمَن يدعوني إلى مسارٍ سريّ. وأنا كنتُ أفكّر حقّاً بأن أتبعه.

على الفور ارتسمتْ لي، لي أنا وحدي ها هناك، مدينة سفليّة مغزوّة بتيّارات رخْو بحريّ ومسقوفة بزجاجٍ يسمح لك بالرؤية من تحتُ من دون أن يراك سكّان الأعالي. كان لأقوامها طبائع عجيبة. لا لسان لديهم من أجل التفاهم، بل مومأة تصدر عن نظام صوتيّ غاية في النباهة. فبحَسب درجة اهتزاز الأصوات يُدرك المُحاور قصدَ جاره. والنساء لديهنّ محلّ الأثداءَ أصابعَ كثيرة. يكفي أن تلمس إصبعاً حتّى تتفتّح لك الإصبع عن ثمرة أو غصن أو رداء. لا ينامون، بل يكفي أن يلمس الواحد عتبة داره حتّى ينتعش من جديدٍ ويواصل العمل أو السير حثيثاً في تيّارات الهواء.

طويلاً بعدَ خروجي من الماء، ظلّت المومأة شاكلتي في الافصاح. فإذا ما بدا لكم كلامي غريباً، فلأنّي أحتفظ في امتداد جسدي كلّه بميراث آت من أقوام غريبة. يُقال إنّه معطى لكلّ واحد أن يحقّق، في لحظة أو أخرى من حياتِه، لقاءاً كهذا. الويل لمن لا يحمل في خلاياه، وعلى جِلده، ميسمَ الغريب. الويل لمن لا يكون إلاّ نفسه. إنّه معرّض للغرق لدى أوّل غمزة ساحِرة تُبديها العين الغمّازة لنورسٍ عجيب.

سباحة

جاء أبي ذات يوم ليعلمّني السباحة. نزل إلى الماء وحده، وبأناقة أبعدَ أعشاباً كانت طافيةً على الماء. تمدّد في الماء محتفظاً بتوازنه، ورفع يديه ليصفّق بهما في الهواء. «الأمر غاية في البساطة» قال لي، وأضاف: «أرأيتَ؟». ثمّ خرج من الماء وأعاد ارتداء ملابسه وعاد إلى البيت.
لم أتعلّم السباحة يومذاك. بيد أنّني شهدتُ تظاهرةً سحريّةً كان الوالد بطلها الوحيد. في براءته الشاسعة، لم يُدرك أنّني لم أفقهْ شيئاً، ولا هوَ لاحظَ أنّني ما نزلتُ معه إلى الماء. لاحقاً، سيُحدّثني الأصحاب عن لذاذة السباحة بمعيّة الأب، وعمّا فيها من حرَج كبير. عندما يستقرّ الواحد منهم مثلاً على علباء أبيه، والأخير يتقدّم في عرض المَاء حاملاً ابنه في هذه الوضعيّة الشائقة والتي يتخلّلها التجديف.

سوداويّة

تُقبل السويداء كالسهم ثمّ تنغرس في الروح
هناك تتفرّع مثلَ شجرة
وتمدّ جذورها عميقاً

قد يكون للسير في غابةٍ من الإبَر
شبَهٌ بوقعها على الروحِ.
قد يكون لانطواء القنفذ
شبَهٌ بالروح
وهي تتكوّر آنذاك
عاضّةً على أشيائها بهشاشة.

كمثْل مُحارب قديم
تغرسَ السويداء حربتها
في مدخل مدينة

(لنفترضْ أنّها الروح)
وتقول لسكّانها الذاهلين:
– الآنَ يبدأ الحصار
حصارٌ سيُداس فيه
على نذوركم المقدّسة ويُنكَّل
بنسائكم الحبالى والعذراوات
حصار لن يُبقي شيئاً ولن يذّر
كلاّ، لن يُبقي شيئاً ولن
يذّر.

كائن في انشطار

روحه مؤرّقة بكلام لم يقلْه. أفعالٌ لم يقمْ بها تتعاون لتنسج حول وعيه هذه الغلالة التي عبثاً يحاول الاندّساس من ورائها إلى الصبح. يعيش بتفويض ويتنفّس بالنيابة عن مخلوقات ربّما شاهدها في البريّة الواسعة التي حدثَ أن اجتازَها في عهد ما من حياته. حياةً تبدو له في اكتهال وفي الأوان ذاته مسكونةً بطفولة لا تُحَدّ. لاً يتذكّر كيف وصلَ إلى هنا. ربّما أوصلتْه قدماه، أو لعلّه كان هنا منذ البدأية. لكنْ من أين يأتيه هذا الشعور بأنّه عائدٌ من رحلة؟
صفحة بيضاء هي روحه. لم يعلّموه معنى أن يكون، ولا هو عرفَ تطويعَ عدمه. والبياض الذي هو صفحة الروح يعذّبه دون انتهاء. بياض ملحاحٌ ومتطلّب. يريد أن ينكتبَ، ويودّ لو أنّ يداً حاملةً ليراعٍ خطّتْ فيه دلالةً ما، أو شيئاً منعدم الدلالة. في المساء يسّاقط عليه ندى غريب. ينموَ في أعماقه كائن برؤوس عديدة. تلتهم الرؤوس بعضها البعض، والرأس الناجية من الابادة سرعان ما تتمخّض عن رؤوس أخرى تستأنف الصنيع نفسه. كائن في انشطار، ستقولون. بيد أنّ الباعث الأوحد لبقائه هو موسيقى تأتيه من خارج الوقت وتنبؤه بأنّ بياضه هو كلّ معناه. وكذلك بأنّ جلّ ما يقدر أن يفعله هو أن يمعن في تبييض البياض.

جدران

من بعيد، وحبلى بالتهديد، أقبلت العاصفة لتقوّض بنيان داره. داره المتداعية أصلاً. فاستعار مَن بنات أحلامه داراً واسعة وافترشها هو وعياله. لم يكن الصغار مدرّبين على السكنى في العراء، فما بالك بدار هي في حقيقة الأمر محض فكرة؟ كان قد وطّن نفسه على القبول بأيّ شيء. يكفي أنً يعرض الشيء نفسه، وبالاً أو خطراً، حتّى يجد لديه كامل القبول. كان بين الفينة والفينة يتحسّس جدران رأسه ليتحقّق من أنّ حجر

الذاكرة ما يزال في مكانه وأنّه هو المكان. ما الذي كان يشدّه إلى ذاكرته؟ لحظة واحدة، يقول، لا يتذكّر حتّى إذا كان عاشها بالفعل كما يُخيَّل له، لحظة مسكونة باهتزازات خاصّة، تنفتح له عن زمن آخر في الزمن، وتائر تعلو فإذا بالأرض تدور بين يديه كالمغزل الدائر حول مركزه الثابت بلا انزياح. هكذا، كان ينقرض في ازدحام بصيرته المعصوبة ولا يعرف؛ يتلاشى في فكرته الثابتة ولا يقول.

مرثيّة صهري

كان، يومَ مقتله، قد حظيَ بإجازة. في وعورة المتراس وجدَ حيّزاً كافياً ليرتّب هندامه. الوقت هو ما كان في ضيق. جاءت العبوة من جهة ما في إيران، كأنّما للبحث عنه وحدَه. صرعتْه في اللحظة الفاصلة بين المجنَّد الذي كانَه والعائد من الحرب الذي كان سيكون.

أتذكّر أنّه، في أيّام الفيضان، شقّ ذاتَ مرّة صفوفَ المساهمين في الإنقاذ الشعبيّ ليُحيّيني ويتحفني برغيف من الخبز غير المَخمّر. بعد ذلك بسنين، سيهتف لي إلى باريس، وسأميّز في صوته ذلك الرنين الذي ينبؤك، دون أن تعرف كيف يحدث ذلك، بأنّه كيانٌ أبديّ وورقة من النور سيُجعدّها الآتي عمّا قريب.

لابدّ أنّ فكرته الأخيرة كانت مصوّبة في اتّجاه أختي وأبنائهما العشرة، وفي اتّجاهي أنا الذي كنتُ أبدو له مصطرعاً في أحوالي منذ الولادة.

صهريَ الفذّ الذي جاءني، والدنيا فيضان، بابتسامةٍ ضافيةٍ ورغيفٍ من الخبز غير المخمّر كنت شديد الولع به في تلك الأيّام.

الأصدقاء

أنا لا بيوت لأصدقائي.

أصدقائي، يسكن الواحد منهم في أيّ مكان آخر سوى البيوت. الواحد منهم قال: «فلنُرحْ دودة القزّ هذه الناسجة في مجاهل الروّح رداءً لن يُستعمَل»، واتّكأ إلى هاجسٍ لديه وأراحَ كتفه.

كانت الكتف في سفر دائم. ليس صحيحاً أنّ السفر بحاجة إلى حركة. أفما كتبَ شاعرٌ عن رحلاته غير المتناهية على سرير مرضه؟ ولذا، فليس أصدقائي بحاجة إلى بيوت.

منذ أن سكنهم هاجس الرحيل، ابتكروا فكرة اللاّ–بيوت هذه. ولعمري، فلها منافع عديدة. تحميهم من فضول المارّة، وتهبهم نعمة الامتزاج بالهواء. ناهيكَ عن صراعات الورَثة، يحبطونها بذلك في البيضة، فيستريحون ويريحون.

الملاك

رفيق طوبيا في السفر المبهَم
الكائن اللطيف
مرشد الحيارى وواهب الكرامات
في عرض البراري
الدالق على الفم الظاميء جراراً من الماء.

فجّر النبع في الماء وكان ذلك
صنيعاً يهون عنده
زحزح جبالاً من الخوف وكان ذلك
كمثْل مزحة
صنيَعه الأسمى هو في محلّ آخر:
أنّه لا يتراءى لأحد
ومن الخفاء هو بحيث فكرته تكفي.

الوقت

عندما تمدّدتَ في الزمن المَحصيّ
تصوّرتَه بلا انتهاء
والزمن كان حولك يتبع
مساره الحقيقيّ
الساعات تحبل بالساعات
والنهار إلى الليل يُفضي
وغمامة من التعب راحت تُطوّح
بمنازلَ أثيرة لديك،
وجوهٍ تحبّها كما لا تحبّكَ أنتَ نفسك.

الزمن الآنَ مضاعَفاً تريده
زمناً داخلَ الزمن كعرائس روسيّة
تتوالد بعضها عن البعض كأنّما بلا انتهاء.

آه فلتدَعْ عنكَ هذا الوهم الطيّب
ولتمضِ إلى قلب اللحظة

اللحظة الآتية، انظرْ: إنّها تمرّ.

مانيفستو

آه لو كان لديّ غضب آرتو
لأكتب عن سلالة المشعبذين
هؤلاء الذين لديهم
بدلَ الأصابع
مجسّات سحريّة
تجسّ نبض ضعفاء الأرض
ومنبوذي العالَم
لتوجّههم في وجهة ما
هي دائماً الوجهة الخاطئة
بعيداً عن كلّ السبُل المفضية إلى الكيان.

ينبغي حماية الناس حقّاً
من هذه الزواحف العجيبة
التي تتاجر بألمها الخياليّ
تستدرّ به عطف النقّاد
وتئد في البيضة مواهب عديدة.

«في كلّ يوم يُشوى عضو امرأةٍ حيّ»
وفي كلّ نهارٍ
يُباد على مقاصل الخديعة
شعراء كانوا سيكونون.

غرفة

عندما جلستَ في الغرفة الضيّقة، لم تهاجمكَ الجدران ولم يصرعك ملاكمٌ خفيّ. لم تتحرّك الكراسي من تلقاء ذاتها لتجرحك. والموت، هذا الذي كنتَ تتخيّله لابداً في الجوار، لم يتلغْ، لا هذه المرّة ولا قبلها، برأسه. وحده برمك بالحياة جعلك تضيق بزحمة الفضاء. وحدها رومنسيّتك المهلهلة منعتك من أن توسّع الفضاء بفضاء إضافيّ. أوَ تنسى أنّك من ذلك القوم الذي يحتفل بالجهد ويفتّق أشدّ الأثلام ضيقاً عن ثمر موفور وعافيةٍ مديدة؟ الحياة كنتَ تجابهها بوفرة من الحياة. وكم مرّةً رحتَ تصارع المدّ،

فيما العاصفة جيّاشة في الأفق، وغمامة ثقيلة على الروح، وفي العصب أشعّة قويّة مهموزة بنابضٍ خفيّ.

تجريد

مرّةً هفوتُ إلى صنيع مُعجز. فرجوتُ رفاقيَ الصغارَ أن أكون حارسَ مرماهم. كانت الكرة تقبل كالبرقً فأوقفها بحركة إصبع. يئس الفريق الخصم يومذاك إذْ ظللتُ أرتفع أمامه متراساً بكاملي. حسبوني من الجنّ. وأنا نفسي ظننتُني كائناً بلا فتوق. كان شفيعي إلى جانبي يقف.

في الأيّام التالية، لم يكن الهدف ورائي سوى فضاء مفتوح. تقبل الكرة، وبدون حتّى أن أبصرها، أُدرك من صرخات الخصوم المنتصرة انهيار مقاومتي. كأنّني لم أكن هناك. كنتُ هناك بكاملي، إنّما بلا شفيع. كائن بلا شفيع هو حقل رجراج تجتازه الكرات المناوئة من كلّ اتّجاه.

لو تحنّن الشفيع اليوم وأتاني فما من فائدة. اللعب تغيّر. والميدان لم يعدْ هو نفسه. بل صرتَ لا ترى أيَّ ميدان. تُقبل الكرات لتخترق الدريئة من دون أن يكون ثمّة دريئة ولا كرات. العصب موخوز بمهاميز لا تُحسّ. والمطر التجريديّ مدراراً يهطل. يهطل في القلب الواسع الذي هو للا أحد.

فتوّة

هي ذي كيمياء الأحوال المتبدّلة. شبابك الذي كنتَ تضيق ذرعاً به، والذي فعلتَ كلّ شيء للفرار منه، يبدو لك الآن أعزّ ما ملكت. الزمن الوحيد العائد إليك بكامل الامتلاء. كنتَ تمضي في القراءة شطراً من الصباح، وما إن تفرغ القيلولة من سكب أحلامها الرديئة حتى تذرع الشوارع باحثاً عن قرين. نادراً ما كنتَ تجد مُحاوراً لك. الحسناوات، من وراء أعتاب البيوت، يُلقين نظرة غواية ووجل. ومن المقاهي يتناهى إليك صوت أمّ كلثوم معبّأً بالأسف. وعلى امتداد الحدائق يغزوك أريج جيرانيوم لن تشمّ مثيله بعد ذلك أبداً. عندما تعود في المساء، مستضيئاً بجمرة سيجارة الحارس القابع أزليّاً في الركن نفسه من الشارع، تحيّيه برصانة زائدة، عارفاً أنّ هذه لم تكن إلاّ جولة أخرى في مسار معلوم سيتصرّم فيه، بالتوق الباحث نفسه، وبالحرقة ذاتها، ذلك الشيء الباهر وعديم الدلالة الذي تدعوه شبابك.

سجون

صباحٌ بَدا لا كباقي الصباحات. المدرسة حُوِّلت فيه إلى معكسر اعتقال، وأغلب صالات الدرس إلى حُجَر للتعذيب. حدث هذا في بدء طفولتي. حظّ عاثر ولا ريب. فطويلاً بعد ذلك، سيظلّ يتناهى إلى سمعي ذلك الأنين نفسه الذي روت الأمّهات أنّه راح في المساء يقطع الطريق بين المدرسة والبيوت من دون أن يفقد ولو بعض مضائه. أنين راح، في الأيّام التالية، يتصاعد من الأرض وينهمر من المزاريب. طويلاً ينفض المرء ثيابه ليتساقط الأنين منها حبّات حبّات. بعد ذلك، يتحقّق الواحد من أنّ الأنين قد انغرس في منابت الشَّعر وصار يشكّل له طبيعة ثانية.

وحده يأسي من رؤية البشر قابلين بالاقتسام شرطاً للعيش منعني من الالتحاق بالحُمر. لكنّ أنينهم المتصاعد من طيّات السكون منعني من الانقلاب للمعسكر العدوّ. هكذا بقيت شاجباً الظلم من دون أن أنضويَ تحت شعار أو يافطة. ما قيمة يافطة أمامَ أنين؟ أنين سمعتْه عنكَ أمّك (ما دمتَ كنتَ نائماً آنذاك) وبقي مركوناً في واحدة من خلاياكَ لا يريد أن يبرحها البتّة.

باريس، ٢٠٠٠